

علاء حليحل*

الثقافة الفلسطينية في الداخل:

مواجهة وتراجع

تتناول هذه المقالة مسألة الثقافة الفلسطينية في إسرائيل والضغوط التي يواجهها المثقفون والمؤسسات الثقافية الفلسطينية، وخصوصاً جراء ارتباط كثير منها بتمويل من المؤسسة الإسرائيلية، وذلك انطلاقاً من أزمة مسرح "الميدان" في حيفا التي نشأت أخيراً.

تبدأ بالمشاركة في الانتخابات والترشح للكنيست، ولا تنتهي عند أسئلة حارقة في الشأن الثقافي تُطرح بغضب وسخط كبيرين، بينما يتجاهل الجميع الأسئلة الحارقة الأخرى التي يجب أن تُطرح أيضاً في مجال الرياضة والصحة والأديان وغيرها من مجالات الحياة، وسأتطرق إلى هذه المسألة في نهاية المقالة.

ماتت النخب، عاشت النخب

على عكس ما طُرح لدينا في الداخل وما تناولته وسائل إعلامية في العالم العربي أيضاً، فإن المعركة الدائرة اليوم ليست حرباً بين "اليسار" واليمين الإسرائيليين،

اجتمعت في الأزمة الأخيرة التي اندلعت بشأن مسرح "الميدان" في حيفا عناصر متعددة يمكن أن تدل معاً - وكل على حدة - على مميزات العمل الثقافي الفلسطيني داخل الخط الأخضر، وعلى ما تحمله هذه المميزات من أسئلة وتخبطات وإخفاقات وتسويات سياسية واقتصادية نشدها في كثير من الأماكن في العالم، إلا إنها تكتسب خصوصية واضحة ومفردة في سياق فلسطيني الداخل.

وما زالت هذه الأزمة تتفاعل يوماً بعد يوم، وهي تكبر لتتسع مدلولاتها صوب مساحة تزيد عن مساحة العمل الثقافي والمسرحي لتطال أيضاً العمل السياسي والموقف من تعريف "التطبيع" وعلاقة فلسطيني الداخل مع المؤسسة، مع ما تشمله هذه العلاقة من مركبات

* روائي وقاصّ فلسطيني.

نفسها صهيونية ويهودية، وترفع الأعلام الإسرائيلية الضخمة في باحاتها وعلى أبنيتها في كل حرب، إلى جانب التضييقات الكبيرة على الناشطين السياسيين العرب فيها وحملات الاعتقال التي لا تتوقف ضدهم. وسقط أيضاً مجال التربية والتعليم في يد اليمين، وبدأ ذلك بالحرب ضد كتب يمكن أن تخدش الإجماع الصهيوني في المدارس مثل كتب التربية المدنية، وبتدعيم نهج تجهيز طلاب الثانويات للانخراط في الجيش والمنظومة العسكرية، وبارتفاع نسب العنصرية والفاشية لدى الفتية والفتيات اليهود إلى درجات قياسية.

ونتيناهاو يعمل الآن جاهداً على سقوط الإعلام: فقد شهدنا الهجمة على القناة العاشرة التي تتخذ خطأً أقل يمينية وغزلاً بالإجماع الصهيوني والأمني الإسرائيلي مقارنة بالقناة الثانية، وذلك إلى جانب التحريض على "يديعوت أحرונوت"، منافسة جريدة "يسرائيل هيوم" المدعومة من شلدون أدلسون راعي نتيناهاو، وعلى جريدة "هآرتس"، كمعقل إعلامي يساري أخير. والآن، جاء دور الثقافة: الوزيرة ميري ريغيف تنشط وتعمل وتتحرك بدعم كامل من الحكومة ورئيسها. وهذه ليست نزوة من وزيرة رعناء معروفة بسوقيتها القومية ستنتهي بشدة لجام، فريغيف هي عارض للمشكلة وليست المشكلة بعينها: دولة تنزع عنها آخر قشور الديمقراطية السطحية، وتجنح نحو منظومة سياسية وعقائدية مسيحانية، تنبني على وأد حل الدولتين وضم المنطقة "ج"، وربما الضفة بأكملها، بتوليفة ما. الثقافة لا تنفصل عن السياسة، والسياسة لا تنفصل عن الثقافة. هذه معركة واحدة، ومن يدعُ إلى فصل الاثنتين (من طرف كل من اليمين و"اليسار" المهادن) يعلن موقفاً سياسياً قاطعاً: الحياد موقف

وهي ليست حرباً بين وزيرة الثقافة ميري ريغيف والثقافة العربية الفلسطينية. هذه حرب نحن ضحيتها الثانوية غير المقصودة بصورة خاصة. هذه حرب مستمرة منذ سنة ١٩٩٦، حين قرر بنيامين نتيناهاو شنّ هجومه الكاسح على "النخب القديمة" التي رأى فيها معقلاً مهماً يجب تفتيته من أجل تثبيت حكمه وحكم الليكود. هذه حرب إسرائيلية - صهيونية داخلية، ونحن كالعادة أول المتضررين لأننا أسهل من يمكن أن يحرّض ضده.

على الرغم من ذلك، فإنه لا يمكن الاستهانة بأهمية هذه الفترة على الثقافة الفلسطينية الآن وغداً، وخصوصاً بسبب الأسئلة التي يثيرها غبار هذه المعركة. ولا يمكن أبداً، على الرغم من التشخيص الوارد هنا، تجاهل الخطوات والسياسات التي تتبعها المؤسسة الإسرائيلية اليوم ضد الثقافة الفلسطينية في الداخل، وتلك التي اتبعتها منذ تأسيس الدولة، وانعكس جُلّها في الميزانيات والاستثمار في البنى التحتية المرافقة للعمل الثقافي، إلى جانب إهمال تدريس الموضوعات الثقافية في المدارس، وهي كما يعرف الجميع المستودع الأكبر في كل مجتمع لمستهلكي الثقافة الجدد والمستقبلين.

منذ سنة ١٩٩٦ بدأ سقوط الجيش في يد المستوطنين وضباطهم، إذ خرجت قيادة المستوطنين وحاخاماتهم بخطة لضرورة الانخراط في الجيش والتدرج في رتبته بغية تدعيم الاستيطان والمستوطنين. وسقطت الأكاديمية الإسرائيلية لقمة سائغة في يد منظمة "إذا شئت" ("إم ترستو") الفاشية، وبدأ رضوخ هذه الأكاديمية منذ نحو عقدين للمدّ اليميني المتطرف، ففقدت دورها المفترض كواحة للتفكير المستقل والتجريب وطرح المختلف، وتحولت إلى معاقل ترى

كليشيهات فارغة من أي مضمون. وعلى كل ممثل ومخرج وكاتب وناشط في العمل الفني والثقافي ويعلن ارتباطه ببلده وأهله وناسه، أن يكون مستعداً للعمل في جلي الصحون لو اضطر إلى ذلك. عندها سيكون ممثلاً أكبر وفناناً ونجماً حقيقياً.

اندلعت أزمة "الميدان" قبل عدة أشهر بعد أن علمت عائلة الجندي موشيه تمام بعرض مسرحية "الزمن الموازي". وتتمام هو الجندي الذي قُتل في عملية نفذتها خلية فلسطينية من الداخل كان أحد المشاركين فيها الأسير وليد دقة. وقد قام المخرج المسرحي بشار مرقس بكتابة مسرحية مستوحاة من حياة دقة في السجن، ومن رغبته في الزواج وإنجاب طفل وهو في الأسر. بدأت عائلة الجندي تمام تحرّض على المسرح والمسرحية، الأمر الذي دفع إدارة بلدية حيفا إلى إعلان تجميد الميزانية المخصصة للمسرح، وتشكيل لجنة للخروج بتوصية ملزمة للبلدية. وجدير بالذكر أن مسرح الميدان يتقاضى دعماً مالياً قدره نحو ١,٢ مليون شيكل من بلدية حيفا، ونحو ثلثي هذا المبلغ من وزارة الثقافة، وهو ما يعني أن تجميد ميزانية بلدية حيفا يعني إغلاق المسرح.

ولا بد من تسجيل بعض الملاحظات على اندلاع هذه الأزمة: لم يلتفت أحد إلى المسرحية التي انطلقت قبل عام وأكثر من بدء الأزمة، إلا بعد ترجمة النص إلى العبرية وبدء تسويقه للجُمهور اليهودي، والنتيجة: يمكننا أن نقول ونكتب ما نشاء ما دام في حدود الغيتو العربي. وكان من المفترض أن تُعرض المسرحية في مسرح "الكاميري" التل أبيبي قبل شهرين من الأزمة، إلا إن الميدان تلقى تبليغاً بإلغاء العرض "لعدم وجود جمهور". ولا يمكن الحديث عن "الزمن الموازي" من دون الحديث عن وليد دقة. وهنا للأسف نحن نتأتى قليلاً، ولم نردّ

معاكس لما يروّج له - إنه موقف سيئ جداً.

نورمان ووليد

إلى جانب أزمة "الميدان" التي ما زالت مستمرة، اندلعت أزمة أخرى انتهت سريعاً، بعدما أعلن الممثل نورمان عيسى رفضه المشاركة في عرض مسرحي في المستعمرات في الضفة الغربية. وقالت وزيرة الثقافة على الفور أنها ستنظر في وقف الميزانيات المخصصة لمسرح "المينا" الذي أسسه عيسى في يافا كمسرح يهودي - عربي مع زوجته "اليهودية". ومع أن الوزيرة لا تستطيع قانونياً معاقبة عيسى بواسطة وقف ميزانيات أقرتها لجنة المسرح المهنية، إلا إن عيسى تراجع وسارع إلى عقد جلسة معها بسرعة البرق، ضامناً أن يعرض مسرح "المينا" في المستعمرات أيضاً. والحقيقة أنني لم أفاجأ كثيراً بردة فعل عيسى وخنوعه أمام أول عاصفة، بل فوجئت بسرعة هذا الخنوع. كان في إمكان عيسى أن يصمد أسبوعاً على الأقل، وعندها سيتغير الخطاب والتكتيك: من رفض شخصي للتمثيل في المستعمرات، إلى قبول مؤسساتي (مسرح المينا) لتقديم العروض فيها. هذه هزيمة نكراء لا يشفع لأحد أنها تنصوي تحت "الخيارات الشخصية" و"ماذا تريدون منه؟" الثقافة موقف، وعي متصاعد وديناميكي وصدامي، المزايا لدى الفنانين والنجوم تقابلها واجبات والتزامات. ولا يُسمى الموقف موقفاً إذا لم يكن مترافقاً مع دفع الثمن. فأني شخص في العالم يستطيع أن يغني الأهازيج اللانهاية عن المبادئ والمواقف (في الأحزاب والجمعيات والعمل الثقافي)، غير أن الحقيقة لا تتبدى إلا في الأزمات فقط. المبادئ التي لا تُترجم إلى أفعال وأثمان ليست مبادئ، وإنما مجموعة

يدور على خلاف شخصي بين الوزيرة ومدير "الميدان"، وكأننا يجب أن نتوسط بينهما بصلحة عشائرية. مثل هذه الجلسات (كما فعل نورمان عيسى ومنتدى الجمعيات الثقافية العربية في ٧ تموز / يوليو) هي محببات قاتلة لأي عمل ممنهج. فمن يتعرض للهجوم، يتعين عليه أن يدافع وأن يبادر إلى هجمات مرتدة، لا أن يبحث عن "التصالح" بمعزل عن الطرف المهاجم بشكل مباشر. وهناك طبعاً المسارات المهنية المعروفة: القضائية والعمل المدني والدبلوماسي.

(٣) هذه معركة طويلة تحتاج إلى نفس طويل، ونحن سنكون جزءاً منها إلى أن يرضخ مسرحا "الكاميري" و"هبيماه" لما يرضي ريغيف ونتنياهو.

أعتقد أن أكثر ما يغيظ في مسرحية "الزمن الموازي" هو أنسنة الأسير الفلسطيني وإجبار المجتمع اليهودي على طرح أسئلة صعبة على نفسه، مثل: هل يمكن إنتاج مسرحية عن يغال عمير، بل عن مناحم بيغن الإرهابي الذي قتل وفجر ضد الانتداب البريطاني؟.. يبدو أن الزمن الموازي الذي يعيش فيه الأسرى محكومياتهم الطويلة (جداً) بدأ يتسرب إلى حياتنا خارج السجن: نحن و"أبناء عمنا" في زمن مواز أيضاً.

مناهضة التطبيع في سياق الداخل

تمت محاولات عديدة قبل أعوام خلت لضم ناشطي ومبدعي ومثقف فلسطيني الداخل إلى حملة المقاطعة الأكاديمية والثقافية لإسرائيل (مركزها رام الله)، وجرى من أجل ذلك لقاءات ومداولات عديدة في حيفا مع ممثلي الحملة، تمخض عنها مسودة خاصة بفلسطيني الداخل لم تُنشر ولم تُعمم حتى الآن، بسبب تعثر هذا

حتى الآن بالوضوح الذي يجب أن نردّ به: التعريفات مثل "البطولة" و"الإرهاب" هي تعريفات متعلقة بالسياق ووجهة النظر. المجتمع الإسرائيلي يُجمع على أن مناحم بيغن ويتسحاق شمير وأريئيل شارون هم أبطال، مع أنهم مارسوا الإرهاب الدموي ضد كل المعايير الأخلاقية. هذه روايتهم ومنها تُشتق الأبطال، تماماً مثلنا. وليد دقة كان جزءاً من الكفاح الفلسطيني المسلح من أجل وطن سليب، وهكذا ننظر إليه، من خلال سياقنا وضمن روايتنا، وليس وفقاً لرواية الإسرائيلي. هذا هو الضابط المبدئي الذي يجب أن يوجه ردودنا وخطابنا. هو في نظركم مخرب، وفي نظرنا مقاتل في سبيل الحرية، تماماً كما ننظر نحن إلى مُخربيكُم وأنتم تنظرون إليهم.

وفي ٢٠ حزيران / يونيو اجتمع نحو ١٥٠ شخصاً من الحركة الفنية والثقافية والحزبية في الداخل لبحث المستجدات في هذه المسألة، ومحاولة الخلوص إلى خطوات عملية للتحرك والتصرف. كان الاجتماع جيداً، وطُرح فيه بعض الأفكار لبرمجة خطة عمل، وأهمها:

(١) يجب التخلص من وهم النضال الشعبي، أو الهبة الشعبية في سياق الثقافة. فللأسف، نحن، حتى على مستوى القيادات أيضاً، شعب لا يحترم الثقافة، ونتعامل معها كأمر قائم بحد ذاته، مستقل عن مسار الحياة اليومية والأمور "المهمة والحارقة"، ولا نسمع بها إلا إذا تظاهر أحد ما (داعشي) ضد عرض مسرحي أو رواية، أو هُدد فنانون بجزر رأسه في الفايص بوك. يجب أن نتصرف من خلال هذا المنطلق كي تكون خطواتنا مهنية وحكيمة وعلى قدر طاقاتنا.

(٢) أمّا التخوف الثاني فهو "المبادرات" التي تمت من أجل الاجتماع بالوزيرة للحفاظ على "شعرة معاوية"، كأن الحديث

طائل منه، وأن الفعل الثقافي الفلسطيني في الداخل يجب أن يتم بتمويل ذاتي وبدعم خارجي. وحتى في سياق الدعم الخارجي، فإن ثمة معسكرين: الأول يرى في الاتحاد الأوروبي والصناديق الأجنبية الغربية على اختلافها مصدراً شرعياً للتجنيد، بينما يرى المعسكر الثاني أن هذه الصناديق ليست إلا استمراراً للمد الكولونيالي الذي يتجسد لدينا في الاستيطان الإسرائيلي والأيدولوجيا الصهيونية. ولذلك، أثارت مسألة "الميدان"، وما زالت تثير، كثيراً من الجدل العاصف الذي لم يحسم حتى الآن، ولا يبدو أنه سيحسم يوماً. لكن مع ذلك، يجب الإشارة إلى بعض المظاهر السيئة التي رافقت هذه الأزمة، وكلها ينبع منا ومن ممارستنا كأقلية أصلانية.

فمن الأمور المقلقة جداً في سياق مناهضة التطبيع مع دولة إسرائيل وإمكان تطبيق ذلك في داخل الدولة نفسها، أن الجدل ما زال ينحصر حتى اللحظة في الشأن الثقافي فقط، وأنا أعتقد أن هذا مرده إلى أسباب موضوعية فحواها حادثة هذا الخطاب في الداخل نسبياً، وبروز المنتج الثقافي على أشكاله كعنصر معبر ومجسد عن الهوية والانتماء والوجود البشري بصورة عامة. غير أن ذلك يترافق أيضاً مع أسباب لا يمكن وصفها إلا بالجبن وعدم الرغبة الواضحة في تناول مجالات أخرى لا يقل فيها إلحاح الأسئلة عن المجال الثقافي. فلنأخذ مثلاً مجال الرياضة عامة، وكرة القدم خاصة. فالمنتخب الإسرائيلي الرسمي الذي ينافس الفرق الدولية في أكثر من بطولة ومحفل يضم لاعباً أو اثنين أو أكثر من العرب مواطني الدولة، وهؤلاء يمثلون إسرائيل رسمياً بصفتهم أعضاء منتخب، ويقفون مع زملائهم اليهود الإسرائيليين على ملعب كرة القدم عند عزف النشيد

المسعى في نهاية الأمر وتوقفه. وأكدت هذه المسودة وبصريح النص والعبارة على حق فلسطينيي الداخل في تلقي الميزانيات من دولة إسرائيل بحكم مواظنتهم، وشرعية علاقاتهم باليهود الإسرائيليين بحكم طبيعة سير الحياة المختلطة في الدولة، إلا إن المسودة طلبت من فلسطينيي الداخل الالتزام بعدة نقاط أبرزها: ١ - عدم إضعاف أو تقويض حملة المقاطعة فلسطينياً وعربياً ودولياً؛ ٢ - دعم وترويج المقاطعة الدولية للمؤسسات الإسرائيلية المتواطئة في انتهاك القانون الدولي؛ ٣ - التوفيق بين المقاطعة والتعايش ومناهضة التطبيع. ومن المطالب العينية التي طُرحت وطلب الالتزام بها ما يلي: "أ - عدم تمثيل إسرائيل أو مؤسساتها الخاضعة للمقاطعة في المحافل الإقليمية والدولية؛ ب - عدم المشاركة في وفود إسرائيلية (رسمية أو برعاية منظمات صهيونية عالمية)؛ ج - عدم توفير غطاء فلسطيني، أي ورقة توت، لمن يخالف معايير المقاطعة، أكانوا أفراداً أم مؤسسات، عرباً أم أجنبياً؛ د - عدم المشاركة في أنشطة إسرائيلية ذات طابع دولي وخاضعة للمقاطعة؛ وبنود أخرى ذات صلة.

نحن نرى أن هذا السعي الذي جرى، وكذلك تعثره، يشكلان جزءاً أساسياً من الجدل الدائر حول مسرح "الميدان" وعلاقته بوزارة الثقافة الإسرائيلية: فالمعسكر الأول يرى في الميزانيات المرصودة حقاً لا غنى عنه بأي شكل، وأنه ينبع من مواظنتنا وأحقية استعادة أموال الضرائب التي ندفعها إلى الدولة، وأنه علامة لا لبس فيها على وجودنا المدني في الدولة (وقبولنا به) على الرغم من جميع الصعوبات التي ترافق ذلك. أمّا المعسكر الثاني فيرى أن هذه الأزمة أبرزت بشكل واضح أن التعايش مع المؤسسة الإسرائيلية في المجال الثقافي هو أمر لا

والمعيب لمسرح "الميدان"، واستعداده منذ أيام الأزمة الأولى للتنازل والتفاوض والخنوع من أجل إنقاذ الميزانيات الموعودة من وزارة الثقافة وبلدية حيفا. وقد تبدى ذلك أولاً في أن مسرح الميدان بعث برسالة إلى بلدية حيفا يوافق فيها على مطلبها أن تصادق على كل نشاط في المسرح قبل حدوثه إذا لم يكن عرضاً لمسرحية، وقد أرسلت هذه الرسالة السرية قبل اجتماع حاشد وكبير بحضور قيادات عربية دعت إليه إدارة الميدان، أي أن التنازلات بدأت نحو تسوية مع البلدية والموضوع في أوجه وبالسري. ثم عُيّن المستشار القضائي للمسرح، غسان أبو وردة، مديراً مؤقتاً، وهو عضو بارز في حزب ميرتس الصهيوني في حيفا، وأدلى بتصريحات سيئة معتبراً "الميدان" جزءاً "من الفسيفساء الإسرائيلية"، قائلاً: "نحن كدولة ديمقراطية يجب ألاّ نسمح بقمع حرية التعبير"، واضعاً المسرح في خانة الاندماج الكلي. ثم قال لاحقاً في جلسة الاستماع لدى الوزارة بشأن تأجير قاعات المسرح لأحزاب عربية وفاعليات سياسية: "لماذا لم تقولوا لنا في سنة ٢٠٠٨ ألاّ نفعل؟ لو طلبتم منا لتوقفنا".

ما يهمنا من ذكر هذه التصريحات هو الإشارة إلى البلبلة الكبيرة التي تسود هذه المسألة وتنوع التوجهات والاجتهادات: من مقاطعين لإسرائيل ووجودها ومؤسساتها، إلى عرب من أحزاب صهيونية يعتبرون أنفسهم جزءاً من الثقافة الإسرائيلية. ■

الوطني الإسرائيلي ("هتكفا"). وكثير من فرقنا المحلية يحمل أسماء نوادي عبرية وإسرائيلية بعضها تأسس قبل الدولة في سياقها الاستيطاني الأول، مثل "هبوعيل" و"بيتار" و"مكابي"، ولا أحد يجد ضيراً في ذلك (بدلاً من تأسيس نواد عربية مثلاً). ولنأخذ مجال الطب أيضاً: كثيرون من رؤساء الأقسام والأطباء البارزين في الجهاز الطبي الإسرائيلي هم من العرب، وكثيرون غيرهم يمثلون الدولة في مؤتمرات وندوات ومشاريع بحثية باسم الدولة مع الاتحاد الأوروبي وأميركا وغيرهما، وريع هذه المشاركات كلها يصب في مصلحة دولة إسرائيل في الصعد كافة. أمّا في مجال الأديان فالأمر يصرخ بكل قوة: أئمة مساجدنا، في معظمهم، يتلقون معاشات من وزارة الأديان ويتبعون لها، وهم في واقع الأمر موظفون في الوزارة، مع أنهم يحيون الدين الإسلامي ويرفعون الأذان. ويمكننا أن نعدد هنا مجالات عمل وانخراط كثيرة أخرى، تطرح أسئلة وتخبطات لا فكاك منها. وإذا كان البعض يرفض تلقّي ميزانية من وزارة الثقافة الإسرائيلية فلماذا يقبل أن يخضع والده مثلاً لعملية جراحية منقذة للحياة يجريها طبيب يهودي إسرائيلي شارك في المجازر الأخيرة في غزة؟ أليس هذا سؤالاً لا يقل أهمية وإلحاحاً عن تمويل مسرحية أو إصدار كتاب؟

العنصر السلبي الثاني الذي برز في هذه المعركة الدائرة حتى الآن، هو الأداء السيئ